دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	نقد مسرحية دون جوان لموليير
المصدر:	الآداب الأجنبية
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	مولاتولي، ف. م.
مؤلفين آخرين:	الجهماني، يوسف إبراهيم(مترجم)
المجلد/العدد:	س 19, ع 75
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1993
الصفحات:	317 - 336
رقم MD:	232654
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	النقد المسرحي، موليير ، جون باتيست، الخصائص الفنية، المسرحيات الانجليزية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/232654

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

نقد مسرحيّة دُون جوان لموليير

بقلم : ف.م . مولاتولي
ت : يوسف ابراهيم الجهماني

الكاتب : ف.م. مولاتولي

ترجمة : يوسف ابراهيم الجهماني

المصدر : كتاب « موليير » ـ صادر عن دار التنوير ـ موسكو ١٩٨٨

في مستهل عام ١٦٦٥ ، عندما بدا واضحا ان مسرحية موليير « تارتوف » لم تستطع الوقوف على قدميها ، التقط موليير الريشة ثانية واخذ يكتب مسرحية جديدة اطلق عليها اسم « دون جوان او الوليمة الحجرية » . تابع الجمهور هذه المسرحية باهتمام كبير ، الا انها كانت تثير بشكل اقل قياسا الى أعمال موليير الكوميدية التي شاهدها سابقا لدرجة أن هيمنت عليه حالات من الهدوء والصمت أثناء مشاهدته لها . بعد ذلك توقف عرض هذه المسرحية ولم تعرض أثناء حياة موليير ابدا ، ولم تظهر على خشبات المسارح الا بعد ثمانين عاما تقريبا . كما انها لم تطبع في حياة مؤلفها ولم يستخدم الحق في النشر الذي حصل عليه احد تجار المسارح وبقي سبب ذلك مجهولا . كتبت هذه المسرحية

بادىء ذي بدء نثرا وظهرت الى جانب الهزل فيها أشياء أخرى مرعبة — اعادة احياء تماثيل لشخصيات كانت من عداد الموتى ، واشباح موتى يأتون لزيارة الاحياء — وفي نهاية المسرحية يغوص بطلها في الارض مختفيا رويدا رويدا وذاهبا الى الجحيم .

استقبل رجال الاكليروس هذه المسرحية بحقد غير اعتيادي ورأوا فيها الشقيقة الكبرى لمسرحية مؤلفها الممنوعة « تارتوف » .

اليكم مايقوله عن دون جوان خادمه سفاناريل : « دون جوان ، سيدي انه أعظم انسان تعيس حملته على سطحها الارض ، سفاك ، كلب ، شيطان ، مارق ، تركي ، لايؤمن بالحياة الاخرى ولا بالقديسين ، لا بالرب ولا بالشيطان ، ودائما يتوجه الى الحياة البهيمية .. أنت تقول أنه تزوج سيدتك ، فلتعلم ايضا انه قد يذهب بعيدا ويتزوج كلبتك وصولا حتى الى قطتك .. انه مزواج على جميع الاتجاهات ... وعندما يصل الامر عند صديقك درجة لايبقى فيها لديه قطرة من ضمير ، يمكنك ان تعتبر أن كل شيء قد انتهى » .

فجأة يكف دون جوان عن حب زوجته ايلفيرا ويغادرها ويكلف خادمه سفاناريل بتوضيح سبب مغادرته .

والخادم المسكين لايستطيع جوابا على ذلك سوى أن يبرطم بكلمات غير مفهومة ، أما دون جوان فلم يجب ايلفيرا على عتابها بشيء وينسحب وهنا يتساءل سفاناريل فيما اذا عاتب ضمير دون جوان صاحبه أم لا ويأتيه الجواب دون ابطاء ، عندما يأمره سيده بالاعداد لاختطاف فتاة كان قد وقع في حبها .

شـــاطىء البحـــر

نجد فلاحا اسمه بييرو يحدث عروسه بفخر عن كيفية قيامه بانقاذ غريقين . كان بييرو قد قام بانقاذ دون جوان وخادمه سفاناريل ، الامر الذي حال دون تنفيذ عملية الاختطاف التي كان يفكر فيها دون جـوان وسرعان ماركن اثر ذلك للهدوء . وفي بيت الفلاح ، حيث كانا يجففـان ثيابهما ، شاهد دون جوان فتاة خلابة اسمها ماتيورينا وبعد ذلك ذهب ليتمشى فشاهد عروس منقذه بييرو « شارولوتا » وكـان أن أعجبتـه الاخرى أيضا . « انني جد مبهور ، لم أقابل مثل هذا الجمال قط في حياتي » ، ــ هذا مانطق به خائن العهد ، ولم يكتف بذلك ، بل ذهـب بعيدا في خيانته ليعدها بالزواج . وحينما علم بييرو بذلك لكزه وهـدده بالطرد . لكن عروسه تخاطبه قائلة : « لاتغضب يابييرو ، ان هذا السيد جاد بما طرحه علي والغضب لاينفعك في شيء » . وعلى الاثر تظهر ماتيورينا فيحاول دون جوان أن يقنعها بالزواج منه أيضا . وعند ذلك يحذرونـه من مخاطر قادمة : هنالك رجال مسلحون يفتشون عنه . وفي الحال يأمر دون جوان خادمه ان يتبادل معه بالملابس لينقذ نفسه.

غابـة كثيفـة

يظهر دون جوان مرتديا ملابس قروي بسيط ، أما سفاناريل فكان مرتديا زي طبيب . وتدور بينهما أحاديث فلسفية طويلة ، يتساءل فيها سفاناريل ــ الذي يبدو عليه كأنه لم يغسل وجهه ــ هل من المعقول أن سيدي لايؤمن بالجنة والنار ولا بالحياة الاخرى او بالحياة الاسرويـة، التي هي عنده أمور غير قابلة للنقاش . « فيما أننا نعيش علـى هـذه المعمورة ، يجب علينا ان نؤمن بشيء ما : بماذا تؤمنون انتم ؟ » ــ بماذا أؤمن ؟ــ يستغرق دون جوان مفكرا ــ انني أؤمن ياسفاناريل بأن اثنـين مرتين تساوي أربعة ، أما الاربعة مرتين فتساوي ثمانية » .

تاها كعابري سبيل في الطرق ، يصادفهما رجل فقير ، يشير لهما الى الطريق الصحيح ويطلب منهما صدقة . وبعد ان علم دون جوان أن هذا الفقير لايتوقف عن طلب الرحمة من الرب ، يستهزىء به قائلا: «ان الانسان الذي يصلي كل يوم . لايمكن ان يكون محتاجا » . واثر ذلك يعد دون جوان الفقير ان يعطيه لويدر اذا اقدم الاخير على شتم الرب . فيرفض الفقير ذلك قائلا : « لا ياسيدي ، لن افعل ذلك ، حتى لو مت جوعا » . وعندها يعطيه دون جوان نقودا ، انطلاقا من « حبه للعمل الانساني » ـ كما فسر ذلك . وعندما رأى دون جوان لاحقا ان هنالك ثلاثة رجال يهجمون على رجل وحيد في الغابة يمتعض قائلا : « المعركة ليست متعادلة ، وانا لا أستطيع صبرا على هذه الدناءة » ـ ضاغطا على سيفه ، مندفعا لتقديم المساعدة .

وفي النهاية ، يظهر دون جوان وسغاناريل في مقبرة ، كان الكامندور مدفونا فيها . يقدم دون جوان خدمة بأن يدعو التمثال الى العشاء لديه. يهز التمثال رأسه مرتين . وعندما يشاهد دون جوان تلك الهزات ، يخاطب خادمه قائلا : « دعنا نغادر هذا المكان » .

قصر دون جوان

اعتصر دون جوان أفكاره ليجد تفسيرا لما دار ليلة البارحة،غدرونا بلعبة الضوء أو ان عيوننا كانت ، ببساطة ، مظلمة.

يصل الى قصر دون جوان ممولة طالبا النقود المتوجب دفعها .

لم يكن دون جوان راغبا بدفع النقود المتوجبة ، الا انه لم يعتذر عن استقبال السيد ديمانش . يستقبله استقبالا حسنا ويدعوه الى العشاء، وعندما يرفض ديمانش هذه الدعوة ، محتجا بأنه على عجلة من أمره ، يدعو دون جوان الخدم ليودعوه . ولم يعطه فرصة لينطق بسبب مجيئه.

يقدم والد دون جوان على معاتبة ابنه ، ودون جوان يستمع اليه صامتا ويقول . بعد انتهاء أبيه من الحديث بلطف مقذع : « ياسيدي ،لو كنتم في حالة جلوس ، لكان الامر اكثر سهولة لكم » .

تخرج اولفيرا متجهة الى الدير بعد ان تطلب من دون جوان ، الذي أحبته كثيرا ، أن يعتني بنفسه وينقذ روحه ويصحح أخطاءه . وما كان من دون جوان الا أن يطلب منها عدم الخروج الى الشارع في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . يجلس دون جوان الى العشاء وفي هذهاللحظة يحضر الى ضيافته تمثال الكومندار ، ودون ان يطرف عينيه يستقبل دون جوان هذا الضيف الشؤمي . ويعده بزيارة جوابية غدا في المقبرة .

واحة صحراوية

يحدث دون جوان والده محبرا اياه أنه في غبطة من أمره ويريد ان يكفر عن جميع الشرور التي صنعها للناس ويطلب منه أن يصبح مرشده في ذلك . يتأثر الشيخ كثيرا بهذا الحديث لدرجة ان (الدموع انسابت من عينيه ويخرج لكي يخبر الام العجوز بهذا الخبر السعيد . وأثناء خروج الاب ، يخبر دون جوان خادمه سغاناريل بأنه خدع والده ، على الرغم من أن الحادثة التي جرت معه والتمثال عصية على الادراك ، غير انه سيبقى كما هو عليه . النفاق ــ انها الرذيلة الاكثر حداثة والاكثر فائدة ، التي بفضلها يتمكن المرء ان يسمح لنفسه ان تعمل ماتشاء . ياللاسف ، ياللاسف ، يدمدم سغاناريل ــ وعلى الاثر يظهر شبح يحذر دون جوان من نهايته القريبة. يضغط دون جوان على مقبض سيفه ويتجه باتجاه الشبح ليتأكد فيما اذا كان الذي أمامه روحا أم جسدا . يظهر تمثال الكومندار فيلكز دون جوان ، أما دون جوان فيرد عليه مصافحا. وعندها تنشق الارض وتبتلع التمثال ودون جوان معا . ويبقى سغاناريل

وحيدا . ويبدأ هذا الخادم الفقير العويل حزينا على خدماته التي لن يدفع أحد مقابلها مستقبلا .

لنحاول الولوج الى هذه المسرحية ، التي تعتبر أكثر مسرحيات موليير تعقيدا . كما تعتبر من المسرحيات العصية على التحليل .

كانت اسطورة دون جوان وحتى شخصه ممسرحا معروفين تماما عند الفرنسيين حتى قبل موليير . وكان الجمهور يتجه ليرى هذه العروض بتجمعات كبيرة . وأكثرها اغراء ذلك العرض الاسباني ونهايته الراقصة بما تخللها من مسير للعربات وتغيير للديكورات ، التي كان يقوم بها في السابق أبناء البلد من الصيادين . وكل مسرح كان يقوم بهذه اللعبة بطريقته الخاصة وأحيانا كانت المسرحيات جد مختلفة . وعلى أساس جميع هذه الاعمال الدراماتيكية لاسطورة دون جوان كانت المسرحية الاسبانية « الغاوي السيفيلي » . المكتوبة في عشرينات القرن السابع عشر من قبل تيرسودي مالينا (١) . أما موضوع دون جوان فيعود الى الاساطير الشعبية الاسبانية القروسطية . فالكتبة السيفيليون حافظوا على الحديث عن أحد الدوقات ويدعى جوان وعن الكونت دي تبزيو ونزهاته وعن أول مبارز في سيفيل في احدى المرات اختطفت دون جوان ابنة الكومندور غانسيليودي اوليو وطعن الاخير حتى الموت ، عندماحاول مطاردته . استدرج الرهبان الدون جوان الى معبد في دير فرنس ،حيث يقع مدفن عائلة اوليو . وفي ساعة متأخرة من الليل حضر الدون جوان الى الموعد المحدد ، لكنه لم يخرج منه أبدا ، واختفت آثاره ولم يعثروا على جثته . وفي الصباح أشاع الرهبان بأن الدون جوان حضر ليلا الى المعبد وقدح تمثال الكومندور المغدور .

وعندما عادت الحياة الى التمثال ، جذب اليه هذا التعيس ودفعه الى الهاوية . وفي تلك الازمنة الفارقة في القدم . لم يجسر أي كاثوليكي اسباني على عدم تصديق هذه الاشاعة الصادرة عن الكهنوت .

لكن الرهبان ، الذين أقدموا على قتل الدون جوان ، وكانوا قد قدموا له خلودا دون ان يدروا في الاسطورة ، التي طارت على أجنحة السرعة خلال جبال البيرنيه وصولا حتى فرنسا ، حيث قام نفسه بما قام به في اسبانيا ، الا انه أصبح في فرنسا فرنسيا وأطلقوا عليه اسم دون جوان . وزار الاخير ايطاليا وسموه هنالك دون جوفاني ووصل الى بريطانيا والمانيا مغيرا في كل مرة اسمه وبعض خصاله فكان جون وغالس وفي النهاية وصل الى روسيا ، حيث امتلك هناك ، تحت ريشة بوشكين خصالا مختلفة تماما . وأصبح الباحث عن المثل العليا وحصل على اسم غريب وهو دون غوان .

بهذا نرى ان الموضوع بحد ذاته ليس جديدا ، غير ان المسرحيات لم تنضم بأي شكل من الاشكال الى خيمة المذهب الكلاسيكي ، الذي سيطر حينها على الادب والتي كانت تتطلب المحافظة على ثلاث قواعد : الزمان والمكان والفعل . وهذه المسرحية غنية بالاحداث الى تلك الدرجة التي لايستطاع عرضها بأي شكل من الاشكال خلال زمن أقل من أربع وعشرين ساعة . كما ان وحدة المكان بشكل مفضوح .

القصر في ستيسيليا ، شاطىء البحر ، الغابة ، قصر دون جوان، واحة صحراوية . ونجد ان الاحداث في المسرحية مخروقة الأمر الذي غيب عنها وحدة الحدث . وهي خالية من النقاء الفني . فالمشاهد الهزلية على سبيل المثال ، خير مثال على ذلك ، والمساعدة التي قدمها السيد السيد ديمانش . التي كانت تمتزج مع المشاهد جديرة بأن تصبح

« كوميديا راقية » (على سبيل المثال عتاب الاب) ، وهذا جميعه مجتمعاً مع المونولوج الدراماتيكي الحقيقي لاولفيرا . وحدث هذا في زمن كان فيه التقيد بقواعد المذهب الكلاسيكي ملزما ودليلا على الريادة والذوق الرفيع . اما لغة المسرحية ؟ فهي لغة ادبية صحيحة ، لغة الارستقراطيه الفرنسية ، واضحة بأفكارها وذات ظرافة لاتضاهى ، أما الخادم فكان ينطق بلغة الفلاح الفرنسي الخشنة (الامر الذي لم يكن مفهوما،اذا عرفنا ان الاحداث كانت تجرى في ستيسيل) .

كانت طباع دون جوان معقدة ومتناقضة . فهو من الشباب النبلاء مرتديا تلك الطباع . التي كانت تعتبر خصالا غير مفصولة عن كل نبيل وأهمها الرجولة وتقاليد الشرف . وكان ان ظهر بأنه رجل سيء السلوك وغاو وتعيس . يسعى دون جوان الى الحط من قيمة الانسان ،في الوقت الذي فيه يفرح عندما لايتحقق ذلك .

ويقدم الى الفقير قطعة من النقود فقط بسبب هيامه بالانسان (عشقه البشري) . وعندما يرى ثلاثة رجال يهاجمون رجلا واحدا ، يسرع الى نجدة الضعيف . وفي النهاية يصرح بأن رذائله اتحدت مع الرياء ، وهذا لايمكن تصوره .

ما الذي حدث مع عزة نفسه مجتمعة مع إلحاده الوقح واستقلاليته عن المجتمع ؟ كلا ، فدون جوان قد يفش الا انه لايرائي . ودون جوان وحيدا ومتوحدا مع ذاته قادر على رؤية الحقيقة من خلال عيونه تارتوف ــ متزلف يكذب على نفسه وعلى الآخرين . تارتوف ــ غير قادر ابدا ان يتجاسر مستقلا . ودون جوان حينما يقول انه أصبح مرائيا فهو ببساطة يخدعنا مرة أخرى ، بعد علمه ان الرياء موضة العصر .

فهو لاينكر الخرافات الشعبية مستهزءا بها فحسب ، بل يصل الى درجة الالحاد المعلن والمباشر ويفكر مستقلا وبطريقة غير متوقعة .

ودون جوان هنا كأني به تابع لـ « تارتوف » حينما يقول : تخريب اخلاقي ، دعارة ورياء المرائين . وهذه مجتمعة أوجه من عمله واحدة .

لقد اصبحنا ندرك السبب الذي لاقت منه المسرحية الجديدة الموليرية انفجارا وعدم قبول من منافقي الكنيسة ومشاهير النبلاء .

كتب محامي البرلمان الفرنسي ريشمون قائلا بصدد ذلك : « ان موليير يستهزأ بالدين ويدعو الى الاباحة الفكرية » . فالعواصف والرعود التي صعقت صاحب الفكر الحر في نهاية المسرحية عبارة عن خواء ،وتزيح بشكل نهائي وناجز كل فكرة عن العقاب الساخر ، الذي نتج عن صراخ الخادم سغاناريل في القاعة « اجوري ! اجوري ! » .

كم كان عدد اعداء موليير ؟ كاهن من كنيسة فارفولامي يدعى بيير رول ومحامي البرلمان ريشمون والامير كونتي واخيرا والدة الملك ! واصبح الدفاع عن موليير مهمة صعبة وشاقة.

هل ثمة مدرسة الحادية اكثر وضوحا من « الوليمة الحجرية » ؟

هذا ماصرح به الامير كونتي . ان الحاد دون جوان يعرض أفكارا واضحة بذكاء خارق واحيانا يكون ذكاؤها اعتياديا . أما الدفاع عن الدين فموكول الى خدمة اغبياء مغرورين .

يتقدم الملك اخيرا برغبة الدفاع عن موليير ليقول

ـ لكنه اي « دون جوان » يعاقب في نهاية المطاف.

اذا وحسب وجهة نظر الملك ، يكون دون جوان مستحقا للعقاب دون أدنى مجال للشك.

بعد ان علم موليير بذلك ، ادرك انه لن يتسنى له حماية مسرحيته الجديدة ، وبعد العرض الخامس عشر اوقفها وركز اهتمامه للحصول على موافقة عرض مسرحيته السابقة « تارتوف ».

واثناء مراقبة موليير لمثالب من عاصره من الرجال ، كان يقيم عاليا كل شعاع ولو كان ضعيفا يشير الى النقاء الروحي لدى صاحبه.

في احدى المرات ، سافر موليير مع الموسيقار شاربانتي واثناء الطريق صادفهم فقير ، توقف الموكب وقدم موليير الحسنة وبعدها تابعت الخيول سيرها . وفجأة سمع حركة من الخلف ، نظر فرأى الفقير يتبع الموكب .

ـ قال الفقير موجها الحديث الى موليير : ياسيدي ، أنتم أخطأتم بالطبع واعاد اليه قطعة النقود .

ـ كلا ، ـ هكذا قال موليير ـ لم أخطأ وقدم لهذا الفقير قطعة نقود أخرى .

ـ هتف موليير : رجل في أسمال كهذه ! إفعل الخير حيث يتسنى لك فعله !

لم يقف الملك بعد ذلك ، ولا مرة واحدة ، مدافعا عن موليير ولم يسمح له حتى بعرض مسرحية « تارتوف » . لكنه في آب من عام ١٦٦٥ أطلق على مسرحه اسم « فرقة بالي رويال الملكية ».

* * *

(١) تيرسودي مالينا (غابرائيل تيليس) (١٥٧١ ـ ١٦١٨) ـ مسرحي اسباني مشهور ومسرحيته الدرامية « الغاوي السيفيلي » هي احدى أوائل الاساطير المنسوجة عن دون جوان .